فلسفة الرمز في فكر النفّري

الباحثة/ رحاب عبدالحميد درويش

الملخص

مفهوم الرمز بشكل عام هو الاخفاء لمعنى باطني غير ظاهر وراء معنى آخر ظاهر مباشر، لكن هذا المعنى الظاهر والمباشر ليس هو المقصود بعينه حيث لجأ العديد من الصوفية إلى الرمز للعديد من الأسباب المختلفة منها: الاقتداء بالقرآن الكريم ومنها أيضاً الخوف من السلطة والفقهاء وعامة الناس الذين يصعب عليهم فهم التجربة الروحية الذاتية، فقام الصوفية بوضع رموزاً فيما بينهم ليحتفظوا بأسرارهم فيما بينهم من ناحية ولإضافة طابع جمالي للغة والخطاب الصوفي من ناحية أخرى، فاللغة الرمزية هي لغة غامضة ومجهولة سواء من طرف عامة الناس أو من طرف كثير من الباحثين ومترجمي الأدب الغربيين.

قام العديد من الصوفية باستخدام الرمز للتعبير عن مواجيدهم وأحوالهم، وللتعبير عن العديد من القضايا والموضوعات من منظور صوفي مثل: المجهول والكون والإنسان والعلاقة بين الله والإنسان والعلاقة بين الإنسان والعالم، فالرمز الصوفي يتميز بالغموض والعمق كما يتيح لهم العديد من التأويلات المختلفة، فهناك العديد من الصوفية الذين استخدموا الرمز ومنهم: (ابن عطاء الله السكندري في الحكم العطائية والنفري في المواقف والمخاطبات)، تعتبر الحكم العطائية من قبيل الرمزيات، وكانت أيضاً هذه الحكم للخواص والمريدين وليس للعوام، حيث تتناول العقائد والأحكام في الآيات والأحاديث وليس بها عبارات مفهومة حسب ظاهرها، كما نجد أن النفري قد تميز بالرمزية واستخدام الرموز والاشارة في وصف الطريق للوصول إلى ما يسميه بلحظة الشهود، وذلك من خلال مواقفه ومخاطباته.

الرمز ليس له مدلول واحد، ويختلف استخدامه من صوفي لآخر حسب تجربته الذاتية، وبذلك تعددت واختلفت باختلاف مدلولاتها، فمثلاً رمز المرأة عند العديد من الصوفية هو دليل على المحبوب وهو الله تعالى، ورمز الخمر والسكر هو حالة الذهول والهيام الناتجة عن القرب والحب الإلهي، كما تخضع اللغة الصوفية للتأويل من طرف المتلقي، وبذلك نجد أن النفري لعله لا يريد أن يشاركه أحد في رحلته الروحية إلى المعرفة بالله، كما نجد أن هناك صعوبة في فهم

كتاباته التي تتسم بالغموض لأنه قام باستخدام الاسلوب الرمزي كثيراً في مواقفه ومخاطباته كباقي الصوفية في كتاباتهم، ولكنه يتميز بالصياغة والبلاغة والفصاحة والعمق في اسلوبه.

Summary

the mystical symbol in general is the hiding The meaning of of an invisible inner meaning behind another direct apparent meaning but this apparent and direct meaning is not what is meant, many Sufis has used the symbols for many different imitating the holy Quran and also the fear of the reasons like authority, the jurists and the general public who can't understand the personal spiritual experience. So, many Sufis has put symbols only they can understand to keep their secrets and to add an aesthetic character to the Sufi language and discourse.

The symbolic language is a mysterious and unknown language to the general public or many of researchers and translators of Western literature but the Sufis has used these symbols to express their deep feelings and conditions, and also and topics from a Sufi's to talk about many important issues point of view like the universe, the unknown, the human, the relation between God and human and the relation between human and the universe.

There are many Sufis who used the mystic symbol like Ibn Atta Al-Sakanadry in "The Hikam of Ibn Ata'Illah AsSakandary" and "El-Nefary in Al-Mawakif".

المقدمة

يستلهم الصوفية أفكارهم وتجاربهم في أعمالهم الأدبية وكذلك في جميع أحوالهم وأشعارهم من القرآن الكريم على مستوى الأسلوب والمحتوى، ولغتهم الرمزية تعتبر اقتداء واضح لهذا الكتاب حيث أشار القرآن الكريم الى الرمز في العديد من المرات مثل في سورة مريم قصة زكريا ومريم العذراء عندما طلب زكريا من ربه أن يعطيه دليلا على وهبه اياه غلاما أجابه الله قائلا: "قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا"[١]، وكذلك عندما أنجبت مريم عيسى عليه السلام أمرها الله أن تقول لأهلها بأنها نذرت للرحمن صوما وأنها سوف لن تتحدث مع أحد منهم " فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا"[٢]، هذا يعني أنه من المستحيل أن تكلم أهلها وهي صائمة عن الكلام إلا أن يكون ذلك رمزا.[٣]

لقد لجأ العديد من الصوفية إلى الرمز للعديد من الأسباب المختلفة منها الاقتداء بالقرآن الكريم ومنها الخوف من السلطة والفقهاء وعامة الناس الذين يصعب عليهم فهم هذه التجربة الروحية الذاتية، وأيضاً هناك شعورهم بقصور اللغة عن نقل تجربتهم الخاصة[٤]، فوضع الصوفية رموزاً فيما بينهم ليحتفظوا بأسرارهم فيما بينهم من ناحية ولإضافة طابع جمالي للغة وللخطاب الصوفي من ناحية أخرى.

إن ما يميز الأدب الصوفي، نثرا وشعرا، هو ثراء لغته الرمزية، وهي لغة غامضة ومجهولة سواء من طرف عامة الناس أو من طرف كثير من الباحثين ومترجمي الأدب الصوفي الغربيين.

إن اللغة الصوفية بها العديد من المميزات اللغوية والبلاغية كما يتميز الخطاب الصوفي بالخصوصية، وذلك يعود إلى طبيعة التجربة الصوفية، فهي تجربة ذوقية ذاتية خاصة معاشه، ونجد أن هذه التجربة الخاصة تحتاج إلى لغة خاصة تستوعبها، فبدأ الصوفية باستخدام الرمز في لغتهم وخطابهم، فاللغة الصوفية هي لغة رمز حيث قام الصوفية بوضع مصطلحاتهم الخاصة بهم التي لا يمكن أن يطلع عليها أو يفهمها ويستطيع أن يفك شفرتها إلا الصوفية أمثالهم، وبذلك فهي تحتاج إلى تأويل وشرح لغير الصوفية الذين يحاولون فهم لغة الخطاب الصوفي، فكان هناك العديد من الإشارات والرموز التي تحمل العديد من المعاني الذوقية أضافها الصوفية حتى يرمزوا بها إلى العديد من القضايا الروحية والفكرية الخاصة بهم .

أولاً مفهوم الرمز الصوفي وأنواعه

- **مفهوم الرمز الصوفي**

ينحصر مفهوم الرمز بشكل عام في معنى الإخفاء والحجب لمعنى باطني غير ظاهر وراء معنى آخر ظاهر مباشر لكن هذا المعني الظاهر والمباشر ليس هو المقصود بعينه.

إن التجربة الصوفية هي الباعث والدافع الأول والمباشر لاستخدام الصوفي للرمز، وذلك يظهر من خلال علاقة الصوفي بالعالم، فإن "الصوفي في تعامله مع عالمه يعطل كل تلك الحواس للكشف عن أسرار ودقائق هذا العالم لأنها تنتمي إلى البشرية، وبقاء البشرية غير، وحينما لا يرى الإنسان الغير لا يرى نفسه". [٥]

فالتجربة الصوفية هي "تجربة بحث عن الأسرار الإلهية في الكون، أسرار الحياة والموت والنفس والروح والعقل والقلب، وهي تجربة ذاتية تختلف من صوفي إلى آخر لأنها علاقة بين الذات الفردية للصوفي والذات الكلية للمطلق".[٦]

إن هذه التجربة الصوفية الروحية تعد بمثابة سفر صوفي يبحث فيه عن المتناقض من القضايا التي ظل يجاهد في سبيل الوصول إلى معرفتها وحقيقتها كقضية الحياة والموت، والنفس والروح، والقلب والعقل وغيرها، وتختلف هذه التجربة من صوفي إلى آخر حيث يتخلص فيها الصوفي من هذا العالم المادي الذائل لمحاولة الاتصال بالعالم المطلق، عالم السماء، وذلك عن طريق المعرفة بالله تعالى معرفة حقيقية، فإن ذلك هو أسمى ما يسعى إليه الصوفي حتى يجلب له الاستقرار والسعادة وهو معرفة الله تعالى معرفة خالصة.

وبذلك نصل إلى أن تجربة الصوفي هي "تجربة غير حسية وفي ذات الوقت ليس أمامها سوى الأشياء المحسوسة للتعبير عن نفسها، مما أفسح مجالاً للتأويل وتعدد معنى الرمز الواحد، ليكون رمزاً مفتوحاً احتمالية لا نهاية لها".[٧]

إن الصوفي في تجربته الذاتية الروحية يعبر بالمحسوس عن اللا محسوس، فهو يخوض في عالم يصعب وصفه ويصعب التعبير عنه بلغة عاديه، بل يستوجب لغة تتماشى مع هذا العالم الذي يشاهده وحال النشوة التي يعيشها، فاستخدم الصوفي الرمز كمعادل موضوعي لتلك الحال.

لجأ العديد من الصوفية إلى استخدام الرمز للتعبير عن مواجيدهم وأحوالهم، وذلك لإبهامه ولتعدد التأويلات من جهة أخرى، فإن أول من استخدم الرمز في شعره من الصوفية هو ذون النون المصري، وبعد ذلك أصبح الرمز طريقة من طرق التعبير يحاول من خلالها الصوفية التعبير عن

تصوراتهم ورؤاهم عن العديد من القضايا مثل المجهول والكون والإنسان والعلاقة بين الله والإنسان والعلاقة بين الإنسان والعالم، فقد استخدموا الرمز للتعبير عن العديد مثل هذه الموضوعات والقضايا من منظور صوفي.[٨]

يتميز الرمز الصوفي بالعمق والغموض، فإن طبيعة التجربة الصوفية الذاتية الروحية هي التي جعلت الصوفية يلجؤون إلى استخدام الرمز في هذه الحالة التي لا يمكن التعبير عنها بحروف العبارة لضيقها وحدودها، أما الرمز فيمكن أن يكون له العديد من التأويلات المختلفة، فالغموض هو سمة يتسم بها الرمز والخطاب الصوفي، فالرمز الصوفي يحمل في طياته معنى باطنياً عميقاً لا يمكن الظفر به، وينطوي على أسرار روحية ومعاينة ربانية لا يمكن كشفها إلا لمن فتح الله عليه من أهل الإشارة بهذه الأسرار، وقد يتسع مجال الرمز عند الصوفية حتى يصير معهم كل شيء رمز لكل شيء، وقد يكون في بعض الأحيان الشيء رمز لنقيضه.[٩]

- **أنواع الرمز الصوفي**

إن الرموز الصوفية من حيث الصياغة يمكن أن نقول أنها تنحصر في ثلاث أنوع وهي (الرمز الذهني والرمز الحسي والرمز المجازي)

ـ الرمز الذهني: إن الرمز الذهني مركب لفظي عادي لا يستمد من الواقع لأن معادله موضوعي لا ينتمي إلى الواقع، بل إلى الذهن حتى يبدو النص كأنه ليس به رمز بالرغم من أنه مبنياً أساساً على رمز كبير مثل تصور اللقاء بين العارف وربه.

ـ الرمز الحسي: الرمز الحسي هو رمز مباشر يقع في الغالب في كلمة واحدة، وهو رمز مكثف في بيان موجز، رمز عميق فنياً، فهو على عكس الرمز الذهني مستمد من المحسوسات الموجودة في الطبيعة كرمز الفراشة في أحد طواسين الحلاج، ورمز الطائر كما في بعض نصوص البسطامي، ولكن معناه لا يتوقف عند حدود تلك الرموز الحسية، بل يتعداه إلى معاني عميقة، فهو رمز متعدد التأويل.

ـ الرمز المجازي: الرمز المجازي هو التعبير غير المباشر والإيحاء والإشارة ومنه الاستعارة والكناية والمجاز المرسل، فالرمز المجازي هو مجال لتعدد المعاني.

بالإضافة لذلك هناك العديد من الرموز من الاصطلاحات العلمية التي تعارف عليها مشايخ الصوفية واستخدموها في خطاباتهم وأشعارهم، تعرف باصطلاحات الصوفية، وهي موجودة في

العديد من أمهات كتب التصوف مثل اصطلاحات الصوفية للكاشاني، واللمع للطوسي، والرسالة القشيرية للقشيري، والفتوحات المكية لابن عربي وغيرها..، ونجد أن الرمز الذي عبر عنه الصوفية من خلال مواجيدهم وأحوالهم وأذواقهم يختلف معناه باختلاف الموضوعات التي تناولها الصوفية.[١٠]

ثانياً: الرمز وجماليات التعبير عند النفّري والصوفية

اهتم الصوفية بالعديد من الآداب والفنون المتعلقة باللغة والشعر والغناء، وذلك للتعبير عن أحوالهم ولحظات وجدهم حيث استخدم الكثير منهم الإنشاد الديني والنثر والسماع والغناء والرقص والشعر حتى كان لكل فن من الفنون آدابه وأصوله التي لا يجب تعديها، لأن التجربة الصوفية تجربة معاشه خاصة جداً ولا يستطيع الحكم عليها إلا من خلال من ذاقها وعرفها.

ويذهب البعض إلى أن الخيال والرمز عند الصوفي مثله عند الفنان لا يمكن الاستغناء عنهما، فالصوفي لا يخلو من كونه فناناً إما مبدعاً أو متذوقاً، لأن الفنان ذو حس مرهف وعاطفة جياشة وبصيرة نافذة وكذلك الصوفي في حال وجده وفنائه، كما يعتبر الرمز الصوفي له علاقة وثيقة بالتجربة الصوفية بداية من وصف مرحلة الشوق والمحبة ومجاهدة النفس والبعد عن السوى مروراً بالمرحلة الثانية وهي مرحلة القرب والصلة بين الله والعبد وصولاً إلى الغاية وهى مرحلة الفناء والمعرفة بالله تعالى والشهود. [١١]

ولذا يمكن القول أن لغة الرمز عند الصوفية كانت من لوازم طريقتهم خاصة عند التعبير عن الأحوال والمواجيد، فبالرمز يحفظ المريد سره، وينفتح الطريق أمامه باستمرار ويكشف عن قابلية متجددة لتدفق المعاني وتوالدها منه، ويكون ذلك مرتبطاً بمدارج الطريق ومحدداً بالمستوى الذي بلغه السالك، فيجب علي السالك أن يتحلى بالصبر والطاعة والقناعة وحفظ السر ،ولذا استخدم العديد من الصوفية عند التعبير عن أحوال وجدهم لغة الرمز في مختلف مراحل الطريق ففي المرحلة الأولى من مراحل الطريق والتي يتم فيها الإكثار من التوبة والاستغفار، والدعاء والصلاة والزهد والخلوة والعزلة والذكر بحيث تصبح هذه المرحلة هي نقطة الاتصال أو الانفصال بين الزهد والتصوف، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة العشق أو الحب من العبد لربه ،حتى أصبح البعض ممن يكتبون الشعر يتحدثون عن صفات الله تعالى وأنوار جماله وجلاله في ذاته أو في

صفاته أو في عظمته ودقه صنعته وعجائب قدرته ونعمه العديدة التي أنعم بها على خلقه مستخدمين لغة التعبير الرمزي.

إن تجربة النفّري ومنهجه في التعبير عن أحواله في المواقف والمخاطبات واستخدامه للغة الرمز في كتاباته وأشعاره دليل على أن الشعر بما فيه من جماليات الحرف والرمز هو الوسيلة الفاعلة للتعبير عن الصلة الوطيدة بين الصوفي وربه[١٢]، خاصة في المرحلة الثالثة من مراحل الطريق، وهى مرحلة تخطى الحجب، فهي التي تؤدى إلى الشعور بالفناء، ومثال على ذلك استخدام النفّري لأسلوب الرمز الذى يصعب فهمه أو حتى تذوقه للتعبير عن حالته ووجده وما أطلق عليه النفّري مصطلح الحرف أو المحو فقال شعرا [١٣]:

نسيم كله لطف ..... ولطف سره عطف
وصمت ماله فكر ..... ونطق ماله حرف
ووجه ماله حجب ..... وعين لها طرف
وعلم ماله صحف ..... ومعنى ماله وصف
وقرب ماله أين ..... وبعد ما له خلف
تقلب ذا وذاك يد ..... بها ما إن لها كف
فتثنيه ويوقفه ..... ويمحو الكل في الوقف
فلا هو هي ولا هي هو ..... بل هو منتهى العرف (أى المعرفة)

لقد أثبت النفّري في مخاطباته ومواقفه أن التجربة الصوفية الروحية هي اتجاه نحو الوصول والرؤية والوقوف بالحضرة الإلهية، لأنها تجمع بين عالمين متباعدين بين المحسوس والمجرد، وبين المرئي والغير مرئي، وبين المعلوم والمجهول كما تسعى لإدراك حقائق لا يمكن إدراكها بالعقل، وهي تجربة لا تستطيع المعاني والألفاظ التعبير عنها، فيستخدم الصوفي العديد من الرموز والإشارات المجازية والدلالات التي تجعل لغته خاصة وليست لغة عامة يستطيع فهمها أو ادراك كنهها أي شخص على اعتبار أن اللغة العادية هي لغة المعلوم أما اللغة الصوفية هي لغة المجهول والباطن والرمز، فهي تخلق معاني عديدة من الإيحاء والرمز والتأويل للكشف عن دلالة النص، وبذلك فللتأويل دور كبير في فهم وكشف اللغة الصوفية التي تعتمد على استخدام الرموز والإشارة، ومن ثم فاللغة عند الصوفية تتخذ شكل التأويل للكشف عن ما يحمله النص من رموز واشارات ودلالات ومعاني باطنية، فاللغة الصوفية هي لغة رمزية ومجازية ذات دلالات كثيرة مفتوحة على أكثر من تأويل. [١٤]

ومعنى ذلك أن الصوفي في تجربته يعبر بالمحسوس عن اللامحسوس حيث يخوض في عالم يصعب وصفه ويصعب التعبير عنه بلغة عادية، فيستخدم لغة الرمز والشعر للتعبير عن حالته الوجدانية ومشاعره الباطنية، فالرمز يعتبر هو أساس التجربة، وفي هذا المعنى يقول الطوسي في اللمع: " فباطن اللغة عند الصوفية يتناول علم الأذواق والحقائق والرموز التي لا تستقيم مع ظاهر الشرع وتقاليده، فهي المفارقة التي تحدث بين الظاهر المرفوض والباطن الصحيح المستقيم، إذن الرمز معناه باطن مخزون تحت كلام ظاهر، لا يظفر به إلا أهله ". [١٥]

ويكرر الطوسي في اللمع نفس مفهوم الرمز عند صوفية القرن الثالث والرابع الهجري ويقول: " الرمز معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر، لا يظفر به إلا أهله "، وعند الصوفية يعني دمج كثير المعنى في قليل اللفظ وغيرة عليه أو اتقاء الحاسد أو جاحد لمعانيه[١٦]، فليس كل شخص يستطيع أن يفهم مرادهم من أقوالهم حيث اتخذوا لأنفسهم ولكتاباتهم ذوق خاص ومعاني ولغة خاصة، ولقد تميز الصوفية بالرمزية ومنهم النفّري للتعبير عما شاهدوه وشعروا به في باطنهم، لأن التصوف في حقيقته هو تجربة روحية ذوقيه، وكل صوفي حاول عن طريق الرمزية في كتاباته أن يعبر عن هذه التجربة الخاصة النفسية الوجدانية التي عايشها ويوصلها إلى الغير في لغة الأشياء المحسوسة للتعبير عن حقيقة تفوق الحس، ولذلك لم يفهمهم الكثير من الناس وأصبح كلامهم غريب على أسماعهم، مما أعطى لخصومهم الفرصة في الإنكار عليهم. [١٧] ولا غرابة في ذلك لأن أذواق الصوفية ومواجيدهم وأقوالهم لا تفهم لأنها من المعارف التي تحس بالقلوب ولا تخضع لمعارف الحس أو العقل.

ولهذا كان الرمز هو الكلام الذي يعطي ظاهره مالم يقصده باطنه، ولقد قام المتصوفة بتوظيف الرمز والإشارة للتعبير والتلميح في نصوصهم من أجل الإخفاء والغموض حتى لا تصبح كتاباتهم لعامة الناس، فأصبحت بالفعل تلك الرموز خاصة بالصوفية وليست عامة، فالصوفية يستعملون الرمز للتعبير عن أفكارهم بطريقة غير مباشرة وعن تجاربهم وأحوالهم الذاتية، لأن التجليات والمواجيد والشطحات التي تتكشف في ذات الصوفي حال وجده هي بلا شك مما لا يمكن للغة العادية الإخبار عنها بطريق الحقيقة لأنها ببساطة تجليات غيبية لا تقبل صياغة تصورية ولا تعين الأدلة العقلية في دحضها لإثباتها.[١٨]

وعندما نذهب إلى التفسير العلمي لفكرة الرمز الصوفي، ونتساءل لماذا يغلب الرمز على تفسير ووصف التجربة الصوفية سواء عند النفّري أو غيره من الصوفية، فنجد أن الدراسات النفسية التي

قامت بتحليل التجربة الصوفية ذهبت إلى أن التصوف في حقيقته هو عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الحالات الوجدانية الخاصة، والمتصوف حين يعبر عن هذه الحالات بعد زوالها يقوم بعملية تذكر الماضي القريب، من خلال عمليات الوصف والتحليل والتذكر تختلف قوة وصفها باختلاف الأفراد، وقد ذهب بعض المتصوفة إلى التعبير عن حالاتهم الوجدانية الخاصة بطريقة الرمز، فتغلب على عباراتهم صفة الإبهام والتعقيد والإشارة في اللغة، كما تكون اللغة هي أداة عاجزة عن التعبير عن حالة وجدانية معينة اختلافاً لفظياً، كما نجد أن عبارات المتصوفة تحتمل عادة معنيين أحدهما لغوي ظاهر، وهو ما يظهر من ظاهر الألفاظ أو ظاهر النص، والآخر ذوقي باطني وهو ما يظهر من خلال التعليق والتمليق والوصول إلى المعنى الذوقي الباطن وهو أمر شاق.[١٩]

وبذلك نجد ان التجربة الصوفية تجربة روحية ذاتية وأن الرمز هو نوع من الإشارات الغامضة التي يستخدمها الصوفية بكثرة للتعبير عن عوالمهم الخاصة وعن شعورهم في لحظاتهم الخاصة وفي محاولاتهم للترقي في الدرجات والمقامات والأحوال وفي سفرهم الروحي للوصول إلى المعرفة بالله تعالى، وفي هذا المعنى يقول ابن عطاء الله السكندري:

" إذا أهل العبارة ساءلونا.. أجبناهم بأعلام الإشارة "

" تشير بها فتجعلها غموضاً.. تقصر عن ترجمتها العبارة "

وهو نفس المعنى الذى قصده النفّري من قولته: كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة.

وإذا رجعنا إلى الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري وكذلك مخاطبات ومواقف النفّري نلاحظ الكثير من التشابه في طابع الرمز وتفسير الأذواق بالمصطلح الصوفي، لإن حكم ابن عطاء من قبيل الرمزيات، ويحدث أحياناً أن تستوعب الحكمة الواحدة منها على قصرها وقليل ألفاظها مذهباً كاملاً في التصوف، فإن هذه الحكم للخواص والمريدين وليس العوام، وتتناول العقائد والأحكام في الآيات والأحاديث وليس بها عبارات موهمة أو مفهومة بحسب ظاهرها.[٢٠]

والنفّري كصوفي قد تميز بالرمزية واستخدام الرموز والاشارة في وصف الطريق للوصول إلى ما يسميه بلحظة الشهود حيث يقول النفّري في موقف قبل الكون: أوقفني قبل الكون وقال لي: أظهرته لأعرفه، فمن رآني أتصرف فيه ولا يتصرف، فقد عرفني معرفة الرضا، وقال لى: من عرف نوريته عرف مستقرة، وقال لي: النورية هي الطمأنينة. [٢١]

وهذا يعنى أن الرمز ليس له مدلول واحد فهو يختلف من صوفي لآخر حسب تجربته الذاتية، لهذا تعددت واختلفت باختلاف مدلولاتها، فمثلاً رمز المرأة عند كثير من الصوفية دليل على المحبوب وهو الله تعالى، ورمز الخمر والسكر هو حالة الذهول والهيام الناتجة عن القرب والحب الإلهي، كما أن اللغة الصوفية تخضع للتأويل من طرف المتلقي، فاللغة والإشارة والرمز عند الصوفي هي ليست وسيلة للتعبير فكرياً أو شعورياً فقط وإنما هي تعبر عن نوع معين من المعرفة، وهذه المعرفة التي تكون على شكل لغة أو إشارات تخضع للتأويل من قبل المتلقي، وهذه اللغة أيضاً مرتبطة عند الصوفية بالوحي الإلهي.[٢٢]

ويعتقد الكثير من الباحثين في الفكر الصوفي وخاصة فكر النفّري، أن النفّري قد بلغ بجمال أسلوبه الخاص وإتقانه اللغوي حد الإبداع في الرمز والإشارة والتكثيف والغموض، واللجوء إلى الكتابة الشذرية أي الشذرات والحكم، خاصة في كتابه المواقف، وأن تجربته قد تجاوزت إمكانات الواقع، من أجل أن تُحسِنَ الغوص في داخله، وتُحسن استقصاء ما يُضمره، فهي تجربةُ رموزٍ وإشارات وتلميحات، ومع ذلك يمكن القول بأن رموز النفّري وإشاراته كانت أكثر قبولا وفهما من شروح التلمساني عليها، وهذا ما دفعنا للقول بأن شرح التلمساني لمواقف النفّري كان أكثر رمزية وصعوبة للفهم من كتابات ورموز النفّري نفسه.

وتفسير ذلك أن تجربة النفّري الأدبية لا تبتعد ولا تنفصل عن تجربته الصوفية والإيمانية، فهو قد أقبل على طريق التصوف والزهد والتقرب إلى المولى عز وجل، بأدوات الشعر والكلام المرسل الذي يحمل الكثير من الغموض والتوريات، فهي عوالم أراد لها ألا تنفتح، ولعل النفّري لا يريد لأحد أن يشاركه في رحلته الروحية إلى الله تعالى، حيث الأنوار الدرية والمعارف والحكمة.، ومع ذلك فإننا نجد أن هناك صعوبة في فهم كتابات النفّري، لأنه كثيرا ما يستخدم الأسلوب الرمزي في كتاباته كما هو الحال عند معظم الصوفية في كتاباتهم لكنه يتميز بالصياغة والبلاغة والفصاحة والعمق في أسلوبه النقدي، ونجد في كتاباته اشارات غير واضحة واعترافات في نصف كلمات، وذلك لأنه أراد ألا يعرف الآخرين بنتيجة تجربته وما يعايشه حيث كان يستخدم الأسلوب المجازي مع الجرأة والنحت والاشتقاق الذي يصل إلى حد الاغراب. [٢٣]

والدليل على أن لغته صوفية رمزية ومجازية يظهر في قول النفّري في العديد من مواقفه مثل: قال لي ربي، وأوقفني ربي بين يديه وقال لي أو خاطبني ربي، فلا نأخذ بظاهر النص ونعتبر أنها دعوى نبوة، ولكنها في الحقيقة لغة الصوفية تعبيراً عما يلقى في قلوبهم من حقائق في لحظة صفاء وتجلي

خاشعة، فبدلاً من أن يقول ألقيت في قلبي هذه الحقيقة أو هذا الخاطر يقول قال ربي، إيماناً منه بأن نبع الحقيقة وملهمها هو الله تعالي. [٢٤]

وعند تأمل أسلوب النفّري الرمزي وخصائصه نجد أنه يصعب فهمه أو وصفه وصفا ظاهريا أو حسيا لأنه في حاجة دائمة إلى التأويل الباطني للمعاني، ولأن المصطلحات الفنية في النقد العربي من فصاحة وبلاغة وبيان توضع أو تأتي لمعالجة جوانب التصوير الفني والجمالي في النثر والشعر العربي، أما النفّري كغيره من الصوفية لا يستخدم هذه المصطلحات الفنية بوضوح لأنه لا يريد أن يفصح أو يبين للناس عما بداخله أو ما بجوارجه ووجدانه لأنه يحاول التفسير باستخدام الرموز والخيال، ومن ثم فالنفّري يعتبر من أكثر الصوفية تعبيراً عن بواطن النفس تعبيراً رمزياً به بعض الغموض . [٢٥]

ويفسر ذلك قول العديد من الباحثين في فكر النفّري أنه صعب على الفهم، وهم بلا شك محقون في ذلك لأن التجربة الصوفية تجربة ذاتية خاصة ولا يحسها ولا يدرك حقيقتها إلا من ذاقها وعرفها وهو صاحبها، ودليل ذلك أن صوفيا كبيراً كالتلمساني لم يستطع التعبير أو الفهم للعديد من المواقف او المصطلحات النفّرية، بالإضافة إلى كون التصوف في حقيقته تذوق وليس فهم أو ادراك، بالإضافة إلى ذلك فإن الرمز عند النفّري يختلف عن رمز بعض الصوفية حيث أن الصوفية الآخرون يستخدمون الرمز بالمعنى الجزئي فإن كتاباتهم مليئة بالرموز الفردية بحيث يعبرون عن مجاهداتهم ويصفونها ويدلون عليها برموز مفردة معروفة في المصطلح الصوفي، مثال علي ذلك ما جاء في شعر ابن الفارض وغيره من الصوفية أن النور يدل علي الحقيقة، والمعشوقة تدل على الحق تبارك وتعالي، أما النفّري فالرمز عنده أشمل وأعمق فهو ينتقل من المفردة الرمزية المحدودة إلي موقف رمزي خالص بتعبير نقدي معاصر يرسم لوحة رمزية شاملة تتشابك فيها الرموز المفردة الصغيرة لكي تكون في النهاية الحدود العامة لهذه اللوحة[٢٦]، كما يستخدم النفّري الرمز الصوفي في وصف الطريق إلى الله تعالى والصفات أو العقبات او الأحوال التي يمكن أن يصادفها المريد أثناء الطريق ويظهر ذلك في موقف البحر وغيره من المواقف. [٢٧]

ثالثاً: جمال اللغة والخطاب الصوفي عند النفّري

اللغة في الفكر الصوفي ليست مجرد أداه للتعبير عن المعرفة، بل هي أداة التعرف والتعبير الوحيدة لمعرفة حقيقة العالم والذات، لذا تُستخدَم لغة الرمز للتواصل والتعبير عن أحوال النفس والقلب عند الصوفية لأن ما لا يوصف أو يعبر عنه بالكلام يمكن الإشارة إليه رمزاً، لذلك فالتعبير بالرمز

يعتبر الأسلوب الأمثل لدى الصوفية وذلك بسبب عوامل التجربة الصوفية فهي تجربة ذاتية خاصة تختلف في الشعور بها من شخص لآخر ولأن الأفكار والأسرار الصوفية أدق وأخطر من أن توجه للعامة صريحة وواضحة، لذلك ذهب الصوفية لاستخدام لغة الشعر والرمز.[٢٨]

وفي خطاب النفّري الصوفي وفي أسلوبه المميز تظهر العديد من مظاهر الجمال خاصة عندما نرى استخدامه لصيغة التقابل كرمز للتعبير عن أفق الحقائق حين تتقابل فيه صفات الله تعالى مثل (القادر والعظيم والغافر) مع صفات العبد (العاجز والغافل والجائر)، فتلتقي المفردات بتقابلها وتضادها في المعنى في نص النفّري حتى تخلق تفاعلاً عند المتلقي ،كما تظهر جماليات اللغة وجمال أسلوب النفّري في نفس الوقت، وهذا المعنى أشار إليه يوسف سامى في دراسته الهامة حول لغة النفّري ومميزاتها الأدبية والجمالية حيث أشار إلى أسلوب النفّري المائل إلى الغموض والرمز وما فيه من جماليات التوحيد بين المتنافرات والنزوع نحو القضاء على ما في الأشياء من فوضى وافتراق فقال: وبفعل هذه النزعة الرامية إلى دمج المتباينات أو الغائيات بعضها في بعض قد جاءت اللغة النفّرية مأهولة بشيء من الغموض مما جعلها تستغلق وتستعصى على الفهم والتأويل إلى حد ما، ومع ذلك فقد جاء الأسلوب في أحيان أخرى كما لو أنه يتوسط بين التجريد والتجسيد بحيث يسعك أن تنعته بأنه أسلوب الكثافة الشفافة وذلك بسبب كونه عميقا من جهة وصافيا من جهة أخرى، ويقينا إن مثل هذا الأسلوب الوسط على نحو تلقائي هو أقدر الأساليب المناسبة تماما للنص الصوفي الذى يحاول أن يضيء الغموض وأن يستحضر الغائبات.[٢٩]

كما يظهر جمال اللغة عند النفّري في استخدامه أسلوب النداء الذي استخدمه في المخاطبات بقوله (يا عبد) كصيغة تعكس القرب والتفاعل للعبد في الوقفة وتحديد العلاقة والتفرقة بين الذات الإلهية والإنسانية أي بين المعبود وهو الله تعالى القادر العليم والعبد المفتقر العاجز.[٣٠]

وهكذا يتأسس الخطاب الصوفي عند النفّري على صياغة جمالية تفاجئ القارئ، والقارئ للخطاب الصوفي يجد نفسه في مواجهة نص يهوى البحث عن الغموض في حقيقة التجربة الذوقية الصوفية الإنسانية الذاتية. [٣١] ودليل ذلك أن بنية نصوص النفّري في الوقفة والمخاطبات تجسيد للحظة التجلي التي تظهر في صيغة التكثيف والرمزية في نصوصه، وهي تعتبر انعكاس لعجز الحرف عن التعبير عن المطلق، وذلك يجعل النص النفّري في بناه وصيغته منسجماً مع تجربة النفّري، فالتجربة الصوفية هي تجربة شعور وذوق، ومذهب النفّري جوهره أن ترى وتشاهد لا أن

تعرف وتعلم، فالصوفي عنده في مقام أعلى من اللغة، فهو مقام الشهود والنور ومجاله الصمت، فاللغة ترجع إلى السوى أي ما سوى الله تعالى وليس لها سبيل إلى الحق، فالحق تعالى مباين للمحسوسات والمعقولات التي تخبر عنها اللغة.[٣٢]

وفي كثير من الأحيان يأتي اسلوب النفّري منفرداً ثرياً متفرداً بعلو التجربة في سموها وروحانيتها مختلفاً عن الموروث الصوفي بحيث تتشكل نصوصه في المواقف والمخاطبات على هيئة صيغة حوارية بين المطلق الإلهي والصوفي.[٣٣] فمن خلال لغة الرمز عمل النفّري على تأصيل الكتابة في تجربته الذوقية التي يبدو فيها الحرف على أنه ستاراً وحجاباً لمعانٍ عديدة تتوالد ودلالات تتجلى، كما يستخدم التأويل والرمز في اللغة من أجل ملامسة مواجيد الصوفي في شوقها للقرب من الحق تبارك وتعالى أي المحبوب ومثال ذلك استخدامه لكلمة البيت للدلالة على القلب وكلمة البحر للدلالة على الطريق، فالوقفة عنده لا تعني التوقف بل هي وصل القلب الصوفي واتصاله في لحظة شهوده بالله تعالى، فيراه السالك أقرب إليه من نفسه، ويعتبر ذلك القول قريب من قوله تعالى " أقرب إليك من حبل الوريد "، ويقول النفّري: "أوقفني وقال لي: بيتك هو طريقك، بيتك هو حشرك، أنظر كيف تراه كذا ترى ما سواه"، فقلب المؤمن المريد السالك هو البيت الذي وسع الحق تبارك وتعالى المعمور بنور الله تعالى، وهو ذات القلب الذي إذا غطاه حجاب الغفلة يصير قبراً، وهو قلب المؤمن الذي يتلألأ بأنوار التوحيد حباً وشوقاً لله تعالى.[٣٤]

ويتجلى خطاب النفّري الرمزي في صيغة التلقي والسماع في مخاطبة الإله له رمزاً في قوله: "يا عبد"، فالصوفي متلقي في مقام الشهود والحضرة، بعد أن تحقق بإخلاء القلب عن السوى، وطهر مرآة القلب، ليكون في مقام الشهود والتلقي والتهيؤ، مما جعل لهذا السفر والترقي في المقامات بما فيها من فناء وبقاء، وهكذا فالكتابة داخل التجربة الصوفية للنفري تنفتح على خصوصية اللغة.[٣٥]

ويصف يوسف سامى لغة النفّري بأنها لغة الأدب الصوفي الذى يتميز بالرشاقة والوفرة والتنوع وترابط الأجزاء وعمق المعنى الذى يستغلق على كثير من العوام وحتى الخواص وذلك حين يستخدم أسلوبه المميز الجامع بين التجريد والتجسيد فيقول في هذ المعنى: إن الجملة النفّرية جاءت قصيرة أو مجزأة بحيث لا يطغى جزء على بقية الأجزاء وبذلك اكتسبت الجملة صفات الرشاقة والدماثة والهيف، ومن شأن مثل هذه الصفات أن توائم المحتوى الصوفي تمام المواءمة، أما المفردات فتجيء كما لو أنها قد اختيرت على نحو تلقائي، فهو يوظف آلاف الكلمات بعضها

تجريدي وبعضها تجسيدي الأمر الذى انتج ضربا من التنوع في المعاني وسعة في مساحة المجال، فهو أسلوب يحاول أن يشف عن فحوى الكينونة وأن يجعل الذات تكشف مدخراتها المركوزة في أعماقها البعيدة الغور. [٣٦]

وقد أكدت الباحثة آمال محمد عامر في دراستها بعنوان الوقفة وشهود الأحدية في لحظة النفّري الصوفية على أن نصوص النفّري تنطوي على معانٍ جميلة ولغوية ورمزية لها دلالات عديدة مختلفة تظهر من خلال أسلوب الأمر والنهي والاستفهام والطلب والنداء والصيغة الخطابية، وهو ما ظهر في لغة النفّري المتفردة في المواقف والمخاطبات وهي لغة مقام السر (الوقفة والشهود) حيث تتوارى المعاني خلف حجب الرمزية، فهي ليست لغة البوح والتصريح، وتأتي هذه اللغة عبر صيغة خطابية وأسلوب التقرير والطلب والنفي والإثبات في أفق ينفتح على الزمان والمكان لتتجلى من مقام الكشف والتجليات، فتصبح الكلمة مجلى للمعاني المتخيلة، وثنائيات السر والعلن والوحدة والجمع والخلوة والملاء والفناء والبقاء التي يعيشها الصوفي بين بسط وقبض وجمع وفرق في الترقي للقرب والوصول الي المعرفة بالله تعالى.[٣٧]

وهناك العديد من أقوال النفّري التي تظهر فيها لغة الرمزية و جمال الرمز ومنها قوله في موقف الاختيار: "أوقفني وقال لي: قد جعلت لك في السد أبواباً مفتوحة بعدد ما خلقت وغرست على كل باب شجرة وعين ماء باردة وأظمأتك لئن خرجت لا ردتك إلى منزل أهلي ولا سقيتك من الماء "، ومعنى ذلك أنه في ذلك السد أبواباً مفتوحة إلى التعلق بالأعمال الصالحة وتخصيصها بعدد ما خلقه، فإن العمل الصالح من حيث هو عمل صالح ليس بسد، وإنما جعل سداً من جهة ما يلزمه من ثبوت أنانية الخليقة، فالأعمال هي للأبرار حسنات، أما المقربون فهي لهم سيئات، فإذا كان الضرر هو من ثبوت الخليقة فيناسب ذلك ما قيل إنه جعل أبواباً بعدد ما خلق، أما معنى الشجرة والعين الباردة فهي ما وعد به الصالحين أهل الجنة من مجازاته إياهم على كل عمل من أعمالهم، أما ما توعده لهم إن هم خرجوا فذلك لأنهم من المقربين وعبادتهم هي الفناء في العمل وليس العمل نفسه، فإذا خرجوا فقد باينوا منازل الأهل، والمباينة هي من الاستعداد، وما يكون بالاستعداد لا يتغير، فلا جرم، لا يعودون إلى منازل الأهل ولا يشربون من مشاربهم الباردة. [٣٨]

كما تظهر جماليات اللغة والخطاب الصوفي الرمزي في كتابات النفّري حين يتحدث في كتاباته عن جمال النور وسحر الليل والنهار ودور العبادة والمجاهدة في تزكية القلب وصفاء النفس، من ذلك قوله في المواقف: " أوقفني وقال لي أفل الليل وطلع وجه السحر وقام الفجر على الساق،

فاستيقظي أيتها النائمة إلى ظهورك وقفي في مصلاك، إنني أخرج من المحراب فليكن وجهك أول ما ألقاه فقد خرجت إلى الأرض مراراً وعبرت إلا في هذه المرة، فإني أقمت في بيتي وأريد أن أرجع إلى السماء فظهوري إلى الأرض هو جوازي عليها وخروجي منها وهو آخر عهدها بي، ثم لا تراني ولا ما فيها أبد الآبدين، وإذا خرجت منها إن لم أمسكها لم تقم، وأحلّ المنطقة فينتشر كل شيء وأنزع درعي ولأمتي فتسقط الحرب وأكشف البرقع ولا ألبسه وأدعو أصحابي القدماء كما وعدتهم فيصيرون إليّ وينعمون ويتنعمون ويرون النهار سرمدا ذلك يومي ويومي لا ينقضي"[٣٩]،

ويشرح التلمساني بعض رموز هذا النص فيقول: بأن هذا التنزل ليس إلا إشارة إلى ما يتجدد لأهل الشهود الذاتي، وذلك في قول النفّري أفل الليل أي زالت شدة ظلمة الحجاب، وطلع وجه السحر هو البرزج بين الكشف والحجاب، وفي قوله وقام الفجر على ساق أي زالت اللطيفة الإنسانية التي كانت مغمورة بالحجب، ونومها هو جهلها. [٤٠]

ويعود النفّري إلى لغة الرمز في موقف العهد حين يصف أذكار العبد وتسبيحاته فيقول في مقام الرؤية والشهود [٤١]: "أوقفني وقال لي: سبح لي الأبد وهو وصف من أوصافي، فخلقت من تسبيحه الليل والنهار وجعلتها سترين ممدودين على الأبصار والأفكار وعلى الأفئدة والأسرار"، معناه تسبيح الأبد باعتبار تعقله وهو تسبيح عقلي، وجعله من أوصافه باعتبار القيومية التي بها في الأذهان لا في الأعيان، والأبد هو امتداد معقول جرت فيه حركة الفلك فلحق تلك الحركة معقول يسمى الزمان، فإن كل ذلك هو خلقا لله تعالى. ويقول أيضاً في نفس المعنى: "أوقفني وقال لي: " الليل والنهار سترات ممدودان على جميع من خلقت، وقد اصطفيتك فرفعت الستريين لتراني، وقد رأيتني فقف في مقامك بين يدي، وقف في رؤيتي وإلا اختطفك كل كون ".

ويشير النفّري إلى جمال اللغة عند وصف أنوار الليل والنهار وأنوار التسبيح والذكر، فيقول في وصف أسماء الله تعالى وجمال أنواره[٤٢]: " يا عبد الأسماء نور الحرف والمسمى نور الأسماء فقف عنده ترى نوره وتمشي به في نوره فلا تغشي به في نوره "، ويقول في إحدى مخاطباته: " يا عبد إن وقفت في النور غشيت فلا إليّ تنظر ولا إلى النور تنظر فترجع مراجعك إليك فترى بك شهواتك وتمشي بك في خطواتك " ويقول أيضا: " يا عبد تكلمت بكلمة سبحت لي الكلمات فحلقت من تسبيح الكلمة نورا وظلمة، فخلقت من النور أرواح من آمن وخلقت من الظلمة أرواح من كفر، ثم مزجت النور بالظلمة فجعلتها حجراً جوهرة فالجوهرية من النور والحجرية من الظلمة "[٤٣].

وهكذا عبر النفّري خير تعبير عن معانى الجمال بأسلوب التقابل عندما وصف جمال الليل والظلمة لأن قلوب العارفين لا تفتح إلا في ظلمة الليل فيرون جماله عندما يتنور القلب بنوره، وفي هذا المعنى يقول النفّري في وصف جمال الليل: "يا عبد الليل لي فلا تفتح فيه أبواب قلبك فيه إلا لي وحدي، كلما جاءك وإن كان من عندي فارده إلى ما عندي وإن لم يكن من عندي فارده إلى ما ثبته"[٤٤].

لقد ظهرت جماليات الرمز عند النفّري في العديد من المواقف والمخاطبات وخاصة عندما يعقد المقارنة بين الحجب الساترة للسر، وبين مشاهدة الحقيقة وما بها من فرح وسرور حين يقول: " أوقفنى وقال لي العبارة ستر فكيف ما ندبت إليه "[٤٥]، وذلك معناه أن العبارة الواردة بلسان الظاهر هي حجاب وسر، فكيف الفعل المترتب عليها [٤٦].

ومن أقواله الجمالية المليئة بالرمز أيضا قوله في المواقف: "اوقفنى وقال لي وافرح فإني لا أحب إلا الفرحان، وقل لهم قبلني وحدي وردكم كلكم، فإذا جاءوا معك قبلتهم ورددتك وإذا تخلفوا عذرتهم ولمتك، فرأيت الناس كلهم براء "[٤٧]، ففي قوله هنا اخرج ذلك معناه أنه أشهده حقيقه توجب له الفرح، وعن كونه لا يحب الا الفرحان، نجد أن الفرح من عالم الجمال وهو حضرة الرحمان، فعالم الفرح من الرحمة والرحمة من الرحمانية[٤٨]، ويقول أيضاً: " يا عبد فرحك بما آتيتك أولى من حزنك على ما لم أوتك "[٤٩]

لقد اهتم الكثير من الأدباء والشعراء في مختلف العصور بأسلوب النفّري، فقد استخدم النفّري الرموز الشعرية في كثير من مواقفه خاصة في محاولة لإخراج العبارة من ضيق الاتصال إلى فضاء الرؤية، ولعل ذلك وراء مقولته الشهيرة إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة.

لذا كانت الرمزية هي السمة الغالبة على أسلوب النفّري في التعبير عن مكنونات النفس والشعور، أو عند توجيه النصائح لمريديه، او عند وصف الحجب وأسرارها، وهذا ما عبر عنه يوسف سامى حين قال: حاول النفّري أن يستقرئ عظمة الكون، وان يستنطق صمته وعدم مبالاته بشعور الإنسان، فقد جاءت نصوصه أشبه بالتمائم أو بالرقى التي يأهلها روح الغموض، ولهذا السبب فقد ألتبس النفّري في بعض الحيان واستعصى على القراءة أو الفهم، وذلك بسبب الرمزية والغموض والعمق، ولكنه استطاع بواسطة هذا المزاج الاستبصارى الفذ أن يستضيف السمو نفسه، وأن ينتج نسقاً مرتبط بالرؤية قل نظيره في التراث العربي كله، لأنه أنتج نصا أدبيا عاليا لا

هو بالشعر ولا هو بالنثر لأنه حالة ثالثة من شأنها أن تتخطى الضدين معا، ولذلك أصبح هذا النص صالحا للقراءة والمتعة الذوقية حتى وكأنه كتب في الزمن الراهن. [٥٠]

ولأن الشعر الصوفي عموما يغلب عليه طابع الرمز والغموض لصعوبة التعبير أو التصريح بما في القلب من مشاعر وأحاسيس، فقد ظهر ذلك واضحا في محاولة النفّري التعبير بالشعر عن مواقفه وأحواله وما يشاهد من أنوار الحق وجلاله وجماله، مثل موقف البينة وموقف قبل الكون وموقف ولذكر الله اكبر، حيث حاول بيان علاقة القرب والبعد في موقف الشهود والفناء، او عند وصف حاله عند زيارته للمقام في الحج فقال شعرا تحت عنوان ولذكر الله أكبر:

يا بنية أحضرت للقدس وابتسمت عين إليها بأعلام تخفيها

يد المزيد تواريها وتسترها وبالإشارات تجلوها وتبديها

غيب بدا ما بدا لا تستبين له سبل عليه ولو أدنى مساريها

كل له وله في كل خافية لا تستضيئ لهم جمعا معانيها

وقال أيضا تحت عنوان ولذكر الله أكبر:

يا بنية الخطر العظيم ونبية الود المقيم قد آن منك إلى المشاعر من منى علم القدوم

بشراك فابتهجى لها ما بين زمزم والحطيم لا تستظلى بالخفاء فإن ذلك لا يدوم

وتحت نفس العنوان ولذكر الله اكبر جاء قوله:

كلامي أقرب الروضات منى وفيها ألسن تنبيك عنى

وعلمني في جوانبها مقيم فسر فيها تجدك ولا تجدك ولا تجدني

أن النظر في الرموز الصوفية قد يمنحنا مفتاحًا لفتح بعض الألغاز اللفظية لتفسير الحال أو التجربة التي يمر بها المريد السالك لطريق الحق، وسبب ذلك أنه لا يوجد وصف مباشر للتجربة الروحية يمكن أن يكون ممكنًا للإنسان، ولهذا كانت التجربة الروحية لا تستطيع تفسيرها أقوال الصوفية في حال الفناء أو الشهود، ومن ثم يجب أن تكون دائمًا رمزية وتلميحيه توحي دائمًا بالحقيقة، ولكن لا تقلها أبدًا.

وكلما زادت الجودة الإيحائية للرمز المستخدم، زادت إجابة المشاعر التي تثيرها لدى أولئك الذين يتم توجيهها إليهم، وكلما زادت الحقيقة التي تنقلها، وبالتالي، فإن الرمزية الجيدة ستكون أكثر من مجرد قصة رمزية حيث إنها ستستخدم إلى أقصى حد موارد الجمال والعاطفة، وستجلب معها

تلميحات من الغموض والاندهاش، وسحر الفترات الحالمة العقل الذي هو عليه موجهة، لن تكون جاذبيتها للعقل الذكي، بل للقلب المليء بالمعارف والحس البديهي للإنسان.[٥١]

وبرغم أن هذه الأقوال الرمزية لها مظهر غير مألوف، بل ومظهر غير ودي في عيون أولئك الذين ليسوا على دراية بالحقائق التي يحاولون ترجمتها او التعبير عنها، فإن هناك البعض الآخر الذين أدركوا بشكل حدسي صفاتهم الإيحائية، وارتباطهم بالحقيقة، وقاموا باستعارتها وتكييفها مع أعمالهم الخاصة بترجمة الواقع إلى مصطلحات الإيقاع والكلام والرمز، ومن ثم فإن مملكة الصوفي، وتجربته الخاصة، هما اللذان يؤثران في وصفهما والتعبير عنها بهذه الأوصاف الرمزية والفنية للتاريخ الداخلي للإنسان و مغامراته السرية مع الله والتي تكاد لا تنتهي في تنوعها[٥٢]

وقد حاول بعض الباحثين اثبات أهمية استخدام الرمز ويستدلون على ذلك بتجربة الحلاج الصوفية، وأنه لو استخدم الرمز لما آل إليه حاله من السجن أو القتل، وقالوا: أنه من المعروف أن الصوفي محمد الحلاج (المتوفي ٩٢٢) فشل في إيصال نتيجة تجربته الصوفية بعبارات مفهومة لمجتمعه حيث ظل يثرثر "آنا الحق، أنا الحق" (أنا الحقيقة، أنا الحقيقة [أي الحقيقة، أي الله)، بعد أن امتلأ بالله لدرجة أنه لم يستطع أن ينفصل عن الله و يستعيد نفسه، نتيجة لذلك، أسيء فهمه ووصم بالزندقة وتم إعدامه، وذلك مماثل لما حدث عندما اتهم سقراط بجلب آلهة كاذبة إلى مدينة أثينا التي أحبها جدًا و" إفساد الشباب "، وفي المحكمة لم يتمكن من إيصال ما كان يدور حوله بطريقة مرضية للمحلفين، لذلك حكموا عليه بالإعدام، إن إخفاقه في التواصل معهم هو المتلاعب الأسمى للغة، هو الذي يقوده إلى زنزانة السجن. [٥٣]

الشعر الصوفي عموما يغلب عليه طابع الرمز والغموض لصعوبة التعبير أو التصريح بما في القلب من مشاعر وأحاسيس، فالشعر الرمزي هو الذي يعبر عن التجربة الروحية للتصوف التي يصعب وصفها والكشف عن تفاصيلها بأساليب معتادة لأنها تجربة ذاتية خاصة ولا يشعر بها إلا من عايشها، وإن ذلك البعد الخفي الذي تعانيه الضمائر والقلوب في حالات الوجد، فهي تعبر عما في ذات الصوفي من معاناة لا تستطيع العبارة او اللغة الصريحة إيضاحها وتضيق عن استيعابها والوفاء بحقها في التعبير عنها.[٥٤]

ولقد تعقدت اللغة الصوفية بسبب تعمق الأحوال الصوفية وتعقد المعاني الأمر الذي جعل من الصعب على اللغة العادية أن تعبر بدقة على هذه الأحوال التي يعيشها الصوفي.[٥٥]

وذلك لأن التجربة الصوفية تتشكل من النشوة والانجذاب ومن ثم تجد اللغة العادية نفسها عاجزة عن وصف حالات دقيقة ومعقدة يعيشها الصوفي مثل حالة الاتحاد، لهذا السبب تلجأ الى الاستعارة والرمز مثلما فعل الحلاج حين قال[٥٦]:

حبي لمولاي أضناني وأسقمني
فكيف أشكو إلى مولاي مولآئي
إني لأرمقهُ والقلب يعرفه
فما يترجم عنه غير إيمائي

كما عبر النفري بلغة الرمز عن عجز اللغة عن نقل ما يوجد في داخل الصوفي بقوله: "كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة"، وهناك أيضاً عبارات أبو يزيد البسطامي التي تعكس بوضوح حدة مشكلة التعبير التي أصابت الخطاب الصوفي، غير أن الأزمة اللغوية بلغت ذروتها مع الحلاج الذي دفع حياته ثمن الاعتراف بالمعجم اللغوي الصوفي.[٥٧]

هوامش البحث

[١] – سورة مريم الآية ١٠.

[٢] – سورة مريم الآية ٢٦.

[٣] – هيفرو محمد علي ديركي، جمالية الرمز الصوفي: النفري والعطار والتلمساني، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط١، دمشق، ٢٠٠٩، ص١٩.

[٤] – هيفرو محمد علي ديركي، جمالية الرمز الصوفي: النفري والعطار والتلمساني، ص١٩.

[٥] – محمد يعيش: شعرية الخطاب الصوفي، الرمز الخمري عند ابن الفارض نموذجاً، صـ ١٢٧.

[٦] – وضحى يونس: القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري، صـ ١٠٦.

[٧] – المرجع السابق

[٨] – الرمز بين الرؤية الصوفية والإبداع الفني، ٢٠١٤، صـ ٢٧٩.

[٩] – المرجع السابق صـ ٢٨٠.

[١٠] – أ. حمزة حمادة: بحث تركي مترجم بعنوان: الرمز بين الرؤية الصوفية والإبداع الفني، ٢٠١٤، صـ ٢٨١،٢٨٢.

[11]– موسى وسام: دينامية التأويل الصوفي في كتاب شرح مواقف النفري لعفيف الدين التلمساني (فصل: المدرسة التأويلية بين الفلسفة والتصوف) – مذكرة لنيل شهادة الماجستير – الجزائر – صـ ٦١.

[12]– موسى وسام: دينامية التأويل الصوفي في كتاب شرح مواقف النفري لعفيف الدين التلمساني (فصل: المدرسة التأويلية بين الفلسفة والتصوف)، صـ٦١.

[13] – جمال المرزوقي: النصوص الكاملة للنفري دراسة وتقديم – صـ ٤٤٨.

[14]– موسى وسام: دينامية التأويل الصوفي في كتاب شرح مواقف النفري لعفيف الدين التلمساني (فصل: المدرسة التأويلية بين الفلسفة والتصوف) – مذكرة لنيل شهادة الماجستير – الجزائر – صـ ٧٠.

[15]– موسى وسام: دينامية التأويل الصوفي في كتاب شرح مواقف النفري لعفيف الدين التلمساني (فصل: المدرسة التأويلية بين الفلسفة والتصوف) – صـ٧١.

[16] – الشيخ أحمد زروق: كتاب قواعد التصوف – القاعدة رقم ١٩٦.

[17] – جمال المرزوقي: فلسفة التصوف محمد بن عبدالجبار النفري – صـ ٥٥–٥٦.

[18]– موسى وسام: دينامية التأويل الصوفي في كتاب شرح مواقف النفري لعفيف الدين التلمساني (فصل: المدرسة التأويلية بين الفلسفة والتصوف) – مرجع سابق – صـ ٧١.

[19]– التفتازاني: مقال (سيكولوجية علم النفس) مجلة علم النفس – اكتوبر ١٩٤٩ صـ ٢٩١–٢٩٢، نقلاً عن: عامر النجار (الطرق الصوفية في مصر) صـ ٤٤–٤٥.

[20]– التفتازاني: ابن عطاء الله السكندري وتصوفه – صـ ٨٥–٨٧.

[21] . جمال المرزوقى: النصوص الكاملة للنفرى، صـ ٤٤٢، ٤٤٣

[22]– موسى وسام: دينامية التأويل الصوفي في كتاب شرح مواقف النفري لعفيف الدين التلمساني (فصل: المدرسة التأويلية بين الفلسفة والتصوف) – صـ ٧٢.

[23]– جمال المرزوقي: فلسفة التصوف عند محمد بن عبدالجبار النفري – صـ ٤١–٤٢.

[24]– جمال المرزوقي: فلسفة التصوف عند محمد بن عبدالجبار النفري – صـ ٤٢–٤٣.

[25] – المرجع السابق– صـ ٥٦.

[26] – المرجع السابق صـ ٥٧.

[27] – المرجع السابق – صـ ٥٨–٥٩.

[28]– موسى وسام: دينامية التأويل الصوفي في كتاب شرح مواقف النفري لعفيف الدين التلمساني (فصل: المدرسة التأويلية بين الفلسفة والتصوف) – مذكرة لنيل شهادة الماجستير – الجزائر – صـ ٥٩.

[29] . يوسف سامى: مقدمة للنفرى دراسة في فكر وتصوف محمد بن عبد الجبار النفري، دار الينابيع، دمشق، ١٩٩٧ صـ ١٤٠.

[30] – آمال محمد عامر: بحث بعنوان: الوقفة (شهود الأحدية) لحظة النفري الصوفية – صـ ٧٥.

[٣١]- موسى وسام: دينامية التأويل الصوفي في كتاب شرح مواقف النفري لعفيف الدين التلمساني (فصل: المدرسة التأويلية بين الفلسفة والتصوف) – مذكرة لنيل شهادة الماجستير – الجزائر – صـ ٦٠.

[٣٢]- آمال محمد عامر: بحث بعنوان: الوقفة (شهود الأحدية) لحظة النفري الصوفية – صـ ٦١.

[٣٣]- المرجع السابق – صـ ٦٢.

[٣٤]- المرجع السابق – صـ ٦٩-٧٠.

[٣٥] – المرجع السابق – صـ ٧١.

[٣٦] . يوسف سامى: مقدمة للنفري صـ ١٤٠، ١٤١.

[٣٧]- آمال محمد عامر: بحث بعنوان: الوقفة (شهود الأحدية) لحظة النفري الصوفية – صـ ٧٦.

[٣٨]- عفيف الدين التلمساني: شرح مواقف النفري – صـ ٤١٤.

[٣٩]- جمال المرزوقي: النصوص الكاملة للنفري – موقف وأحلّ المنطقة – صـ ٢٦٣.

[٤٠]- عفيف الدين التلمساني: مرجع سابق – صـ ٢٧٥.

[٤١]- المرجع السابق – صـ ٤٧٥-٤٧٦.

[٤٢]- جمال المرزوقي: النصوص الكاملة للنفري – مخاطبة ١٩ – صـ ٣٥٦.

[٤٣]- جمال المرزوقي: مرجع سابق – مخاطبة ٥٥ – صـ ٣٨٥.

[٤٤]- المرجع السابق – صـ ٣٨٤.

[٤٥]- جمال المرزوقي: النصوص الكاملة للنفري – موقف ما تصنع بالمسئلة – صـ ٢٦٨.

[٤٦]- التلمساني: شرح مواقف النفري – صـ ٢٩٨.

[٤٧]- جمال المرزوقي: النصوص الكاملة للنفري – موقف التيه – صـ ٢٨٥.

[٤٨]- التلمساني: شرح مواقف النفري – صـ ٣٨٤.

[٤٩]- جمال المرزوقي: مرجع سابق – مخاطبة ٢٥ – صـ ٣٦٣.

[٥٠] . يوسف سامى: مقدمة للنفرى، دراسة في فكر وتصوف محمد بن عبد الجبار النفري، دار الينابيع، دمشق، ١٩٩٧ صـ ١٦٦، ١٦٧.

[٥١] - Evelyn Underhill: Mysticism: A Study in Nature and Development of Spiritual Consciousness Publisher: Grand Rapids, MI: Christian Classics Ethereal Library, First published in 1911, P. 108

[٥٢] - Evelyn Underhill: Mysticism: A Study in Nature and Development of Spiritual Consciousness P. 109

[53]- Alex S. Kohav: Mysticism and Meaning Multidisciplinary Perspectives, Edited, first [edition]. | St Petersburg: Three Pines Press, 2019, P.159

[٥٤] – د. وفيق سليطين: الشعر الصوفي بين مفهومي الإنفصال والتوحد، تقديم د. نصر حامد أبو زيد – ص ١٠١.

[٥٥] – يوسف زيدان، المتواليات: دراسة في التصوف، ص١٥.

[٥٦] – مجدي محمد إبراهيم، التجربة الصوفية، مكتبة الثقافة ألدينية مصر، ط١، ٢٠٠٣، ص١٤٠

[٥٧] – يوسف زيدان، دراسة في التصوف: المتواليات، ص٢٠.

المصادر والمراجع

١. أحمد زروق: الشيخ أبي العباس أحمد زروق الفاسى كتاب قواعد التصوف وشواهد التعرف، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥

٢. آمال محمد عامر: الوقفة وشهود الأحدية لحظة النفّري الصوفية – بحث منشور مجلة كلية الآداب جامعة مصراته ٢٠٢٠.

٣. التفتازاني: ابن عطاء الله السكندري وتصوفه –

٤. التفتازاني: مقال (سيكولوجية علم النفس) مجلة علم النفس – اكتوبر ١٩٤٩

٥. جمال المرزوقى: النصوص الكاملة للنفرى المواقف والمخاطبات دراسة وتحقيق، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥، وطبعة أخر شرح وتقديم: دار المحروسة للنشر القاهرة ٢٠١٩.

٦. جمال المرزوقى: شرح مواقف النفّري لعفيف الدين التلمساني، دراسة وتحقيق. مركز المحروسة القاهرة ١٩٩٥، وطبعة أخرى ١٩٩٧، وطبع بالهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠، وطبعة أخرى بدار المحروسة القاهرة ٢٠١٩.

٧. جمال المرزوقى: فلسفة التصوف عند محمد بن عبد الجبار النفّري، دار التنوير بيروت ٢٠٠٩.

٨. عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها، دار الكتب العلمية للنشر، القاهرة ٢٠١٠.

٩. مجدي محمد إبراهيم، التجربة الصوفية، مكتبة الثقافة ألدينية مصر، ط١، ٢٠٠٣،

١٠. محمد يعيش: شعرية الخطاب الصوفي، الرمز الخمري عند ابن الفارض نموذجاً

١١. موسى وسام: دينامية التأويل الصوفي في كتاب شرح مواقف النفري لعفيف الدين التلمساني (فصل: المدرسة التأويلية بين الفلسفة والتصوف) – مذكرة لنيل شهادة الماجستير – الجزائر

١٢. هيفرو محمد علي ديركي، جمالية الرمز الصوفي: النفري والعطار والتلمساني، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط١، دمشق، ٢٠٠٩

١٣. وفيق سليطين: الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد، تقديم د. نصر حامد أبو زيد، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٥.

١٤. يوسف زيدان: المتواليات، دراسة في التصوف، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٩٩٨

١٥. يوسف سامى: مقدمة للنفرى دراسة في فكر وتصوف محمد بن عبد الجبار النفري، دار الينابيع، دمشق، ١٩٩٧ .

١٦. الرمز بين الرؤية الصوفية والإبداع الفني، ٢٠١٤، Dokuz Eylül Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi بحث تركي مترجم بواسطة أ. حمزة حمادة

17. Alex S. Kohav: Mysticism and Meaning Multidisciplinary Perspectives, Edited, first [edition]. | St Petersburg: Three Pines Press, 2019

18. Evelyn Underhill: Mysticism: A Study in Nature and Development of Spiritual Consciousness Publisher: Grand Rapids, MI: Christian Classics Ethereal Library, First published in 1911